كإلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وشبه هذا مما يخيله الساحر أو يتحيل فيه والقرآن كلام
ليس للحيلة ولا للسحر في التخييل فيه عمل فكان من هذا الوجه أظهر عندهم من غيره من المعجزات
كما لا يتم لشاعر ولا خطيب أن يكون شاعراً أو خطيباً بضرب من الحيل والتمويه والتأويل
الأول أخلص وأرضى وفي هذا التأويل الثاني ما يغمض الحق عليه ويغضي ووجه ثالث على مذهب
من قال بالصرفة وأن المعارضة كانت في مقدور البشر فصرفوا عنها أو على أحد مذهبي أهل
السنة من أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم ولكن لم يكن ذلك قبل ولا يكون بعد لأن
الله لم يقدرهم ولا يقدرهم عليه وبين المذهبين فرق بين وعليهما جميعاً فترك العرب
الإتيان بما هو في مقدورهم أو ما هو من جنس مقدورهم ورضاهم بالبلاء والجلاء
والسباء والإذلال وتغيير الحال وسلب النفوس والأموال والتوبيخ والتعجيز والتهديد والتقريع
والوعيد أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله والنكول عن معارضته وأنهم منعوا عن شيء
هو من جنس مقدورهم وإلى هذا ذهب الإمام أبو المعالي الجويني وغيره قال وهذا
عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها كقلب العصى حية ونحوها فإنه
قد يسبق إلى بال الناظر بداراً أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك
الفن وفضل علم إلى أن يرد ذلك صحيح النظر وأما التحدي للخلائق المئين من السنين بكلام
من جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عدم
الإمكان إلا منع الله الخلق عنها بمثابة ما لو قال نبي آيتي أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم
عليه وارتفاع الزمانة عنهم فكان ذلك وعجزهم الله عن القيام لكان ذلك من أبهر آية

هو كان

والظهر دلالة وبالله التوفيق وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر
آيات الأنبياء حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهام العرب وذكاء ألبابها ووفور
عقولها وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم وجاءهم ذلك بحسب إدراكهم وغيرهم من
من القبط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل بل كانوا من الغباوة وقلة
الفطنة بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم وجوز عليهم السامري ذلك في العجل
بعد إيمانهم وعبدوا المسيح بعد إجماعهم على صلبه وما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلظ أفهامهم ما لا
يشكون فيه ومع ذلك فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ولم يصبروا على المن
والسلوى واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير والعرب على جاهليتها أكثرها يعرف
بالصانع وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله زلفى ومنهم من آمن بالله وحده من
قبل الرسول صلى الله عليه وسلم بدليل عقله وصفاء لبه ولما جاءهم الرسول بكتاب الله
فهموا حكمته وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته فآمنوا به وازدادوا
كل يوم إيماناً ورفضوا الدنيا كلها في صحبته وهجروا ديارهم وأموالهم وقتلوا
آباءهم وأبناءهم في نصرته وأتى في معنى هذا بما يلوح له رونق ويعجب منه زبرج
لو احتيج إليه وحقق لكان قدمنا من بيان معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم
وظهورها ما يغني عن ركوب بطون هذه المسالك وظهورها وبالله أستعين

القسم الثاني